اللغة والدين : التأثير والتأثر

دكتور / كمال محمد بشر*

اللغة وليدة المجتمع ونتاج تحركاته ونشاطه ومعارفه وخبراته وأعرافه وتقاليده . وهى فى الوقت نفسه أداة تسيير عجلة الحياة فيه ، تصرف أموره وتدبر شئونه وتضبط معالم طريقه ومسارات سلوكه . ومعناه أن اللغة – بهذا الوصف – تأخذ وتعطى وتستقبل وترسل وتستمد وتمنح ، وكذلك المجتمع بكل عوامله وظروفه وملابساته لا يغرب عن هذا النهج ذاته من العطاء والأخذ والإرسال والاستقبال والمنح والاستمداد . وفى هذا الذى نقول تأكيد لرأى قديم حديث يتبناه اللغويون (الاجتماعيون منهم بوجه خاص) من أن اللغة (بمعناها الاصطلاحى) لا تكون ولا تعيش بدون مجتمع ، ولا حياة لمجتمع بدون لغة . إنها علاقة تلازمية ، وجودًا وعدمًا وقوة وضعفًا ونماء وازدهارا وجمودًا وانهيارًا . أوقل ، إنها علاقة التأثير والتأثر المتبادلة في كل حين وكل اتجاه ، فى إطار العوامل الاجتماعية المعينة .

ولسنا نبالغ إذا قررنا أن « الدين » هو أهم العوامل الاجتماعية التى تمثل قمة الفعالية المتبادلة بين القبيلين . ذلك أن الدين هو نقطة الارتكاز التى يدور حولها

---

* أستاذ اللغة ، والعميد الأسبق لكلية دار العلوم / جامعة القاهرة .

(مجلة البحوث والدراسات العربية ، العدد ٢٧ ، يوليو/ تموز ١٩٩٧ . – ص ص ١٦٧ – ١٨٥) .

ويسترشد بها كل أفراد المجتمع المعين، وهو المرشد والموجه والمنتظم لجملة المبادئ والقيم التى تشكل منظومة السلوك الاجتماعى بكل جوانبه وأطرافه. وفى جملة واحدة:

الدين فى الأصل هو الدستور الجامع لجملة الأعراف والتقاليد، وهو المعين الذى يرتاده الماتحون، يستمدون منه ويعودون إليه كل آنٍ وحين، حتى تستقيم حياتهم وتتأكد إنسانيتهم وتتعمق اجتماعيتهم بكل ألوانها وعواملها، مهما تعددت وتنوعت كما وكيفا.

وشاهدنا على خصوصية الدين من بين العوامل الاجتماعية بقوة العلاقة بينه وبين اللغة ووثاقة هذه العلاقة تأثيرًا وتأثرًا ما جرى ويجرى فى التاريخ الإنسانى قديمه وحديثه على سواء. يحكى التاريخ - والواقع يؤيده - أن الدين هو المصدر الخصب الذى يمد اللغة بأسباب النمو والرقى وعوامل الازدهار والانتشار، وهو الذى يجدد من دمائها ويقوى أعوادها، ويمنحها طاقة المقاومة لكل ما يواجهها عبر الزمن، ومن ثم يضمن لها الاستمرارية والبقاء فى نضج وتكامل فائقين. واللغة من جانبها تحمل هذا الدين على جناحيها: تنشره وتفسره وتوضحه، وتذيع مبادئه وقيمه التى تجمع الناس على درب من السلوك قويم، يضمن انتظامهم فى صف واحد، روحًا وسلوكًا. وهذا هو الوضع الأمثل فى أى مجتمع يدرك قيمة هذا التفاعل بين طرفى المعادلة: الدين واللغة، فيعمل على تقديسهما، بالالتزام بهما والعمل على حمايتهما من أيدى العابثين أو الجاهلين، حتى تتأكد لهذا المجتمع شخصيته وتقوى بنيته لترشحه

للاجتماعية بمعناها الإنسانى الذى يتحقق بوحدة المبدأ وإنجازه ووحدة القيمة وأدائها الفعلى .

من هنا كان التآخى – بل التلازم – بين الدين واللغة فى صفة الاجتماعية . إنهما متكاملان ، ويسيران جنبًا إلى جنب ، ويتعاوران التفاعل والتحاور ، والإرشاد والاسترشاد والأخذ والعطاء واكتشاف ما ينتظمانه من أسرار وطاقات ، واستكشاف المنافذ والسبل التى من شأنها أن تفصح عن هذه الأسرار والطاقات ، بتوسيع المجال أو الدائرة التى تلفهما ، أو بالتوضيح والتعميق لمحصولهما ، أو بالجانبين كليهما ، كما هو الواقع فى أغلب الحالات .

ولسنا هنا بقادرين على استنطاق التاريخ فى القديم والحديث ، لنحكى صور هذا التفاعل المتبادل بين الدين واللغة بكل أمثلته وجزئياته ، وإلاسبحنا فى بحر عميق تعوزنا عدة السباحة وطاقة الغوص فيه . ويكفينا أن نشير إلى شىء من صور هذا التفاعل أو التأثير والتأثر المتبادلين بينهما ، وهى صور أشبه شىء **بالأنماط العامة** التى ينتظم كل نمط منها ما يصعب حصره من الأمثلة الفردية التى وقعت – ولا تزال تقع – فى العالم كله عبر الزمان والمكان .

وندلف الآن إلى ذكر شىء من تلك الصور العامة التى نزعم أنها تؤكد مقولتنا السابقة ، بقطع النظر عن نوعية الدين وخصوصية اللغة . ومن الطبيعي أن تتفاوت درجات هذه العلاقة وذاك التفاعل قوة وضعفًا بسبب العوامل الاجتماعية التى تلف هذا الدين أو ذاك والتى تحيط بهذه اللغة أو تلك .

إنا لنزعم (كما يحكي التاريخ وتسجل رواياته) أن من أبرز تلك الصور

التى تنسحب على كل الأديان وكل اللغات، (وإن بشىء من الاتفاق والافتراق النسبيين) الصورتين الآتيتين:

أولاً التواكب:

معلوم أن الأديان - وإن بشّر بها أفراد مختارون - لا توجه رسالتها وتعاليمها إلى الأفراد منعزلين، وإنما تطرحها بين الجماعات، بل - بالأحرى - تلقى بها إلى المجتمعات، بأى معنى فسّرت هذا الاصطلاح. ومن هنا كان لا بد لهذه الأديان من وسيلة للإيصال والتوصيل. وما هذه الوسيلة إلا اللغة، إذ هى الرابطة التى تجمع شتات الأفراد وتوحّد بينهم، أو تشكل منهم بنية اجتماعية لها خواصها ومميزاتها التى ترشحها لاستقبال هذا الدين أو ذاك. وهكذا يتم التآخى بين القبيلين (الدين واللغة)، وبخاصة أن الأديان يبشر بها وتلقى مبادئها وأصولها بلغة الأقوام المختارين أو المستقبلين لها، تأكيدًا لهذه المؤاخاة، وتوثيقًا لها. وإذا كان هذا المعنى قد أكده التنزيل العزيز بالنسبة للأديان السماوية، بقوله جل شأنه: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[1]، فإن التاريخ لا ينكره، بل يرويه ويسجله بالنسبة للمعتقدات الأرضية أيضًا.

ظهر هذا التآخى واضحًا فى جملة من الأديان، حيث تواكب الجانبان وصحب أحدهما الآخر، ولازمه فى مسيرته، طالت أم قصرت بحسب الحالة المعينة.

ويأتى الإسلام ممثلًا لقمة التفاعل بين الدين واللغة، ومواكبتهما بعضهما لبعض وارتباط أحدهما بالآخر ارتباطًا عضويا، حتى لنزعم أنهما معًا يكونان كلا متكاملا له خصوصيته المتفردة فى إطار علاقة الأديان باللغات.

وفى رأينا أن الثقافة الإسلامية، تقوم على ركنين أساسيين، هما الدين واللغة العربية، فهما متلازمان ومتواكبان أفقيا ورأسيا، يشد أحدهما الآخر ولا ينفك عنه، ويسيران معًا جنبًا إلى جنب فى أرض اللّه الواسعة، ويأخذان حظهما من الانتشار وسعة الآفاق التى قُدّر لهما أن يحلّا بها ويشرفا منازلها. وهما فى الوقت نفسه يتعاوران التعاون فى توطيد أركانهما وتعميق أصولهما والكشف عن أسرارهما، وتجويد التوظيف لمادتهما وإمكاناتهما، حتى يؤديا رسالتهما على الوجه المبتغى الذى يراد لهما ويُقصد إليه، فالإسلام بغير العربية قد يشوبه الإبهام أو تغمض بعض مبادئه ومسائله. بل قد يصيبه شىء من الضعف وعدم وضوح الرؤية. والعربية بغير الإسلام تضيق حدودها وتجف أعوادها وتعطل طاقاتها، وقد يلحقها شىء من الانكماش والانعزال، بل قد تزلزل أركانها وتصبح أثرًا بعد عين.

ظهرت هذه المواكبة وتأكدت - ببعديها الأفقى والرأسى - بين الإسلام والعربية بصورة فريدة فى دوائر واسعة من الأرض التى قدر لها أن تحظى بهاتين الميزتين المقدستين، منذ ظهور الإسلام حتى وقتنا هذا.

اصطحب الإسلام منذ ظهوره وسطوع نوره لغة دستوره وجامع مبادئه وأصوله (القرآن الكريم) فى كل مسيراته واتجاهاته، فجاوز بها حدودها

الأصلية الضيقة فى شبه الجزيرة ، وانطلقا معًا بخطى ثابتة إلى كثير من الأصقاع والبقاع ، واستقرا بها استقرار « **المواطنة** » بكل معانيها .

وقع هذا الاصطحاب **الكامل** فى العراق وبلاد ما بين النهرين ومصر وغيرها من البلاد شرقًا وغربًا . وكتب لهما - بفضل ما فيهما من قوة وإمكانات روحية وإنسانية - أن يتغلبا على ما فى هذه البلاد من ديانات ولغات ، وأخذ القبيلان يتفاعلان ويتبادلان التأثير والتأثر : العربية تفسر وتشرح وتوضح ، والإسلام يمنح زادًا جديدًا من الألفاظ والمصطلحات والتراكيب والمعانى التى لم يكن للعربية بها إلْفٌ أو توظيف شائع . هذا بالإضافة إلى محاورة الإسلام لها بدفعها إلى توظيف طاقاتها بالتوليد لبناتها وتنويع مادتها وأساليبها .

ولقد كان لهذا الاصطحاب الكامل وتلك المواطنة المستقرة للإسلام والعربية في هذه البلاد أعمق الأثر فى مسيرة الحياة هناك ؛ حيث التحم الأقوام فى هذه البلاد بمواكب النور الممتدة أضواؤه من شبه الجزيرة ، واستظلوا بمظلة الإسلام والعروبة ، مُطَّرحين دياناتهم ولغاتهم الأصلية ، وكونوا ركنًا متينًا من أركان الدولة الجديدة ، حاملة لواء الإسلام المنسوجة خيوطه والمرسومة خطوطه بلغته العربية .

وإذا كانت هذه المواكبة بين الإسلام والعربية لم تكتمل مسيرتها على فترات الزمن **الممتدة** فى بلاد أخرى ، فإن هذا لا يعنى انفصام القبيلين أو حرمانهما من التآخى حرمانًا كاملًا بدءًا ونهاية ، من المقرر أن الإسلام فى بداية وفادته إلى هذه

البلاد حمل لغته معه ، تبشر به وتدعو له ، وتفسره وتوضحه . وظلت مصاحبة له تؤدى دورها وتنجز أهدافها على خير وجه ، لفترات من الزمن ، طالت أم قصرت ، وإن لم يقدر لها « المواطنة » الكاملة هناك ، لأسباب وعوامل جغرافية وثقافية وسياسية . وعلى الرغم من عدم استقرار العربية فى هذه البلاد لتصبح **اللغة القومية** بالمعنى الدقيق ، فإنها تركت بصماتها واضحة للعيان ، وأثرت تأثيرًا فاعلًا فى لغات هؤلاء الأقوام وثقافاتهم ومناحى تفكيرهم واتجاهات رؤاهم . ترى هذه البصمات والآثار فى جملة من البلاد الأوربية والآسيوية ، والإفريقية ، حيث تبرز واقعًا حيًّا ملموسًا فى لغات هذه البلاد ، كالأسبانية والفارسية والهندوستانية والتركية والملاوية والهوسا . يتمثل ذلك فى كثير من الظواهر اللغوية العربية التى اكتسبتها هذه اللغات ورحّبت بها وصارت عناصر « وطنية » ، تشكل لبنات مهمة فى بنيانها . تأمل ذلك فى تلك الكثرة الكاثرة من الألفاظ والمصطلحات والدلالات والمعانى الجديدة ، بل والتراكيب والأصوات التى منحتها العربية للغات الأصلية لهذه البلاد ودفعت بها إليها ، لحاجتها الملحّة فى فهم الإسلام والكشف عن أسراره ومبادئه . وامتد هذا التأثير اللغوى العربى إلى مطاوعة بعض هذه اللغات الأجنبية لشىء غير قليل من قواعد التصريف وبنية الكلمات ، على الوجه المقرر فى العربية فى هذا الشأن . وظهر هذا المدّ كذلك فى تبنى لغات أخرى نظام الكتابة العربية (واجهة اللغة العربية) ، كما هو الحال فى اللغة الأردية والفارسية (وإن بشىء من التعديل) ، وكما كان الأمر كذلك فى اللغة التركية حتى وقت قريب ، عندما توجّه « كمال أتاتورك » إلى علمنته الثقافة التركية ، فأقرّ نظامًا آخر لكتابة لغة قومه سنة ١٩٢٦ م .

ولم يكن التأثير المذكور مقصورًا على هذه اللغات (بهذا الوصف)، بل كان له مردود أعمق وأجل نفعًا. ذلك أن ظهور الإسلام وانتشاره فى هذه البلاد وحكم العرب لها - لمدد طويلة أو قصيرة - مكّن كل أولئك من ظهور جيل (أو أجيال) من أبناء هذه البلاد - كالفرس والأتراك مثلًا - تربى فى أحضان الإسلام وسار على هدى من اللّه ورضوان، وصار مسلمًا باعتناق الدين أو بالمربى، فتعلم العربية، بل أجادها وأخذ ينشئ ويكتب بها ما كان يكتبه وآباؤه بلغاتهم الأصلية. وقد جاءت كتاباتهم أو كتابات بعضهم صحيحة المبنى عميقة المعنى إلى درجة تفوق أحيانًا كتابات نظرائهم من العرب. وربما يرجع الأمر فى ذلك كله إلى اعتزازهم بالدين الجديد وثقافته، وإلى جمعهم بين ثقافتين تلقّح إحداهما الأخرى وتضيف إليها. والتاريخ يشهد مؤكدًا دور هذه الأجيال غير العربية وفضلها فى إثراء المكتبة الإسلامية العربية فى شتى العلوم والفنون، وذلك بفضل اكتمال الحسنين المتآخيين، مسيرة وهدفا: الإسلام والعربية.

ولقد كان لبعض الأديان الأخرى نصيب (نوع نصيب) من هذه المواكبة. فالديانة اليهودية مثلًا قد حملت معها اللغتين الآرامية والعبرية وعملت على توسيع نطاقهما وانتشارهما خارج حدود أرضهما الأصلية «فلسطين». وظل الحال كذلك متسمًا بهذه المواكبة حتى انحسر نطاق القبيلين وضاقت دوائرهما نسبيًا، لأسباب سياسية ودينية وثقافية. ومع ذلك ظلت هذه الديانة (فى مجالها الضيق) ذات ارتباط وثيق باللغة العبرية وصورها اللغوية المتفرعة

منها ، ونعنى بها « اليديش » Yiddish و« السفاردية » Sephardi[٢] .

ولما حلّت المسيحية بأوروبا وجدت لغتين مستقرتين هناك ، هما اللاتينية والإغريقية ، وألْفتْهما أداتين صالحتين للقيام بدورها وخدمة أغراضها . فعملت هذه الديانة على تنميتهما ونشرهما ، وحمايتهما من الضياع أو الاختفاء ، نتيجة الغزوات المتلاحقة التى أصابت مناطق هاتين اللغتين على مرّ الزمن ، والتى صنعها وتولى أمرها أقوام ذوو لسنٍ أجنبية وعقائد مختلفة .

والمعروف فى حركات التاريخ أن الغزاة عادة يفرضون لغاتهم على الأراضى المغزوة ، تثبيتًا لأقدامهم وتوطيدًا لحكمهم .ولكن قد يغيب هذا المنهج (كما يحكى التاريخ) إذا كان الغزاة من أصحاب الديانة المستقرة فى البلاد المفتوحة الجديدة . حدث هذا عندما غزا الألمان الإمبراطورية الرومانية فى فترة من الزمن ، إذ لم يحاولوا فرض لغتهم ، لوجود رابطة قوية أخرى تجمع بينهم وبين أهل البلاد الأصليين . هذه الرابطة هى المسيحية التى كان الألمان قد تبنّوها آنذاك . ومن ثم بقيت اللغة اللاتينية لغة هذه الديانة فى هذه البقعة الواسعة من الأرض . ولعل فى هذا الذى نقول ما يؤكد المقولة الشائعة : « إن تبنى عقيدة ما يصاحبه عادة تبنى لغة هذه العقيدة » .

والمعتقدات والمذاهب الأرضية هى الأخرى لم تحرم من هذه الظاهرة ، ظاهرة ارتباط الدين باللغة ومواكبتها بعضها لبعض - بصورة من الصور - فى الظهور والنمو والانتشار . فالبوذية مثلًا قد حملت معها بعض الكتابات والطقوس المقدسة إلى بلاد أخرى ، منها « التبت » Tibet . و« سيام » و« الهند

الصينية » و« الصين » . وكذلك الأمر - على ما يقال - بالنسبة إلى اليابان ، حيث يروى أن بعض الصلوات والأدعية المقدسة **السنسكريتية** ما يزال يلهج ويتمتم بها إلى اليوم بعض فى المعابد البوذية فى بعض الجهات اليابانية ، على الرغم من أن هؤلاء لا يكادون يدركون معانى هذه الصلوات والأدعية .

ثانيا التحاور والتثاقف :

من المقرر أو المعروف (كما يروى التاريخ) أن الدين يصحب لغته معه أينما حلّ وأنىّ ارتحل . فإذا ما استقرا هنا أوهناك لمدد تطول أو تقصر ، أخذ كل واحد منهما يحاور صنوه ، ويكشف له عن مكنوناته وأسراره ، ويبذل له ما يستطيع من بذْل فى صورة التشاور أو التلاقح فى المادة أو فتح الطريق وتمهيده إلى غاياتهما ، حتى ينصرفا إلى هذه الغايات فى توافق وتواؤم ، وحتى لا يقعا فى مأزق العزلة التى من المحتمل (وهو وارد) أن تصيب أحدهما أو كليهما بالضعف وسوء المصير .

يظهر التحاور والتثاقف فى صور كثيرة متنوعة ، أهمها استنطاق كل قبيل لصاحبه ، للكشف عن مخزونه وأعماقه . فالدين يحاور اللغة ، ويدفعها إلى التصرف في شئونها حتى تلبّى حاجاته من وسائل التوضيح ومزيد البيان ، والتيسير والتبسيط للمتلقين من العامة والخاصة . واللغة تنظر فى الدين وتحاول استخراج معانيه وأفكاره وتبسطها بسطا وافيا ، حتى تصل إلى الأذهان وتستقر فى القلوب . ومن المؤكد أن التحاور والتثاقف بين الطرفين تمتد مظلتهما إلى المبنى والمعنى كليهما ، فكل يمنح ويأخذ ما استطاع أو ما احتاج إليه من ألفاظ

وعبارات ومعانٍ تضاف إلى حصيلته، وتنضم إلى ثروته.

ومن أهم وسائل هذا التحاور والتثاقف ما يقوم به الدعاة والمبشرون من عمل فى سبيل نشر الدين وتثبيت أركانه. فهؤلاء الدعاة والمبشرون يحملون الدين ومعه الفقه، وكثيرا ما يقتضى الأمر منهم العود إلى هذا الجانب أو ذاك مرة ومرات: يعودون إلى الدين لتعرّف أسراره ومراميه التى قد تخفى عليهم أو على غيرهم أول الأمر، لعمقها أو لجدّتها بالنسبة للمألوف فى بؤرتهم. ويعودون إلى اللغة بوصفها الأداة الفاعلة والمرشد الناصح إلى هذا التعرّف.

ودليل ذلك ما قام وما يقوم به المفسرون للقرآن الكريم وعلماء الأصول والعقيدة فى الإسلام. إن هؤلاء وأولئك - وهم كثر - جهدوا ويجهدون من أنفسهم فى طرح مالا حصر له من التفاسير والشروح، متفقين أحيانا ومختلفين أحيانا أخرى، وإن كان جلّ الاختلاف ينحصر فى الفروع، لا فى الأصول. كل يحاول استكناه ما يستطيع وما ترشحه له طاقته من المعانى العميقة والأفكار التى لا تنفد من آى الذكر الحكيم وأصول شريعته التى أرسى قواعدها فى طيات هذه الآيات. وكان حتما على الجميع أن يعودوا إلى العربية ويلجأوا إليها ،علّها تسعفهم ببناتها التى من شأنها أن تفصح عما استطاعوا تحصيله واستيعابه من هذه المعانى والأفكار. كانوا - ومازالوا - يستنجدون باللغة ويحاولون تحريكها وتوسيع طاقاتها، بالتوليد من ألفاظها وتراكيبهابوسائل التوليد المختلفة، من اشتقاق ومجاز وكناية، وتجديد فى مكوّناتها اللفظية وطرائقها الأسلوبية.

ويزيد هذا التحاور والتثاقف على أيدى الدعاة والمبشرين عندما يمتد

نشاطهم إلى بلاد ليست لغة هذا الدين أو ذاك لغة أهليها الأصليين . إنهم حينئذ فى مأزق لغوىّ يحتاج إلى لمّاحيّة وبراعة للخروج منه والتخلص من صعوباته

وتأتى الترجمة أهم أداة وأقرب وسيلة يلجأ إليها هؤلاء الدعاة والمبشرون لتقريب الشقة بينهم وبين المتلقين للدين الجديد ، ولتذليل تلك الصعوبات التى قد تحرمهم من أداء دورهم على وجه مقبول . ومعلوم أن الترجمة – فى عموم معناها – أداة فاعلة من أدوات التحاور والتثاقف بين اللغات والثقافات المختلفة . فهى **أولا** تدفع المسئول عنها أو القائم بها – إن عاجلا أو آجلا – إلى تعّرف اللغة الأجنبية المنقول إليها ، وربما يستهويه الأمر ويجذبه إلى دراستها لذاتها دراسة علمية متأنية ، للوقوف على أسرارها واستيعاب نظمها وقواعدها . وهى **ثانيا** تقع موقع الجسر الواصل بين أمتين أو أمم بما استقر لدى كل منها من معارف وخبرات وثقافات وحضارات ، وتقاليد وأنماط سلوك .

وهذه الأدوار ذاتها (بل أكثر منها) تقوم بها الترجمة فى إطار الدعوة إلى الأديان أو التبشير بها . فالدعاة والمبشرون يحاولون تعرف اللغات المنقول إليها أو معرفتها . وهم بذلك يضيفون إلى محصولهم محصولًا لغويا جديدا ، بما ينتظمه من أفكار ورؤى جديدة ، وهم كذلك بمثابة الروّاد فى الكشف عن هذه اللغات وتوسيع حدودها وتعريف الأجيال الخالفة بها . يروى التاريخ أن المبشرين بالمسيحية كان لهم الفضل فى الكشف عن أعداد غير قليلة من اللّسن كما فى إفريقيا وآسيا والأمريكتين واستراليا ، كما كان لهم الفضل فى توجيه النظر إلى هذه اللسن وتعرفها ،

قبل انشغال اللغويين وأضرابهم من الدارسين بها.

ولم تقف جهود المبشرين عند هذا الحد، بل مدّوا جهودهم إلى دراسة هذه اللسن وإخضاعها **للكتابة**، ونقلوا إليها الكتاب المقدس The Bible، مترجمًا. ولم يقتصر الأمر فى ذلك على المبشرين المسيحين؛ إذ يروى أن المبشرين البوذيين من الهند قد منحوا أهل «جاوا» Java أول وثيقة أدبية **دينية** فى القرن الثامن الميلادى. ومن المروى كذلك أن النصوص الوحيدة **المكتوبة** بالألسن المحلية فى بعض المناطق الآسيوية والإفريقية جاءت منسوخة **بالخط العربى** الذى حمله المسلمون معهم عند قيامهم بالدعوة إلى دينهم.

ولترجمة النصوص الدينية بالذات فضل كبير فى التحاور والتثاقف بين الأديان واللغات. ذلك أن اللغة المنقول **إليها** فى هذه الحالة لا تستقبل مبادئ الدين الجديد وأصوله فحسب، بل إنها كذلك تلقّح وتثرى بمجموعة التقاليد والأعراف والخبرات المستقرة عند أصحاب اللغة المنقول **منها** التى تنتظمها وتحملها فى طياتها هذه اللغة. وبهذا يضيف الدين ألوانا جديدة من الثقافات والحضارات التى لم يكن لأهل اللغة المنقول **إليها** معرفة بها أو اتصال مباشر أو غير مباشر. هذا بالإضافة إلى أن المادة الدينية المترجمة، غالبا ما تكون زاخرة بالمصطلحات والعبارات ذات المفهومات الخاصة التى من شأنها تحريك اللغة المنقول **إليها** وتنشيطها، وفاءً بالتعبير الدقيق عن هذه المفهومات.

وربما يؤدى هذا فى جملته إلى صقل اللغة المنقول إليها، وتطويع أساليبها وطرائق التعبير بها، ورفعها - وإن بالتدريج - لأن تكون لغة **علمية** متسمة

بالدقة والعمق فى الإبانة وتسجيل الحقائق . ولا نستبعد أن يكون لهذه الترجمة الدينية مردود إيجابى آخر فى إطار التأثير والتأثر بين اللغة والدين . يتمثل هذا المردود فى محاولة « نمذجة » اللغة المنقول إليها ، وتخليصها من اللهجات والتنوعات المتباينة ، حتى يتسقر لهم أسلوب لغوىٌّ مقبول موحد أو شبه موحد ، قادر على النقل بصورة يفهمها الجميع ، دون النظر إلى ما بينهم من اختلاف اللسن والرطانات . حدث شيء من هذا عندما قام « لوثر » Luther بترجمة الكتاب المقدس سنة ١٥٣١ م ، حيث وضع الأساس بعمله هذا للغة الألمانية الحديثة ، بتخليصها - قدر الإمكان - من اللهجات والتنوعات المحلية ، ونمذجتها Standardization وتحديثها Modernization.

وللإسلام فى إطار التحاور مع اللغات غير العربية والتثاقف مع أصحاب هذه اللغات دور كبير يذكر ولا ينكر . وهو دور - وإن كان يحتاج إلى وقفة متأنية ودراسة مستقلة - يمكن الإشارة إليه فى هذا المقام بذكر مثال واحد ذى أهمية بالغة فى هذا الشأن . القرآن الكريم (دستور الإسلام) انكبّ الناس منذ زمن بعيد فى الشرق والغرب على ترجمتة ونقله إلى لغاتهم[٣] ، وتسابقوا إلى تعرف ما ينتظمه من مبادئ وأفكار وقيم عليا لم يكن لهم بها عهد ، وليس فى لغاتهم ما يفى بحاجة التعبير عن هذه المبادئ والأفكار والقيم تعبيرا دقيقا يكشف عن أسرارها ويجلّى مضامينها . فحاولوا جاهدين النظر فى لغاتهم يستنطقونها ويحركون بناتها بالتوليد أو الصقل أو التجديد والابتكار . واستمرت هذه المحاولات تترى وتزيد وتتسع حتى وقتنا هذا ، وما زال التحاور اللغوى قائما والتثاقف بين الأقوام ممتدا بصورة أعمق وأشمل ، وبخاصة فى هذه

الآونة الأخيرة، حيث كثرت الأيديولوجيات والتوجهات الفكرية المتضاربة المتناقضة، وحيث أدرك الثقات من المفكرين أن الإسلام بمبادئة الإنسانية السمحة قد يخلصهم من هذه الورطة الفكرية، أو فى الأقل - قد ينير الطريق للمتخبطين يمينا ويسارا، ويتأكد لهم أن الحق أمامهم أبلج والباطل لجلج.

ولم يقف الأمر بهذه اللغات عند تحريكها وتنشيطها، وفاءً بحاجة الترجمة الدقيقة للقرآن الكريم (وغيره من النصوص الدينية الإسلامية)، بل امتد التأثير إلى استقبال هذه اللغات فيضا زاخرا من الألفاظ والمصطلحات الإسلامية التى لم تستطع صياغة ما يقابلها أو توليد ما يعبّر عن مفهوماتها ودلالاتها، لعمق هذه المفهومات والدلالات وخصوصيتها الثقافية التى ليس لهذه اللغات ولا لأهليها الطاقة على استيعابها، وتقديم ما يفصح عنها بدقة وجلاء.

ولعل هذه الصعوبات وأمثالها كانت من أهم العوامل والأسباب التى دفعت الناس شرقا وغربا (مسلمين وغير مسلمين) إلى تعلّم اللغة العربية، بل وإجادتها، بوصفها المفتاح الحقيقى لفهم الإسلام وإدراك أسراره والوقوف على ثقافات المسلمين وخبراتهم ومعارفهم. وتأكد هذا الاتجاه عند مجموعة من العلماء الذين نصبوا أنفسهم لدراسة العربية وتحليلها، والكتابة بها وعنها. ظهر ذلك بوجه خاص فى جهود « المستشرقين » الذين أثروا المكتبة العربية الإسلامية بالآثار الجليلة النافعة، لا فى الدراسات الإسلامية فحسب، بل فى اللغة وأصولها وقواعدها، وبلاغتها وثروتها اللفظية. وزاد الاهتمام بالعربية (لغة الإسلام) عند الناطقين باللغات الأخرى بإنشاء مدارس أو أقسام فى الجامعات أو معاهد مستقلة لدراسة العربية وعلومها فى بلادهم، على ما هو معروف لنا

جميعا . وليس بمقدور أحد أن ينكر مدى التحاور والتثاقف الحاصلين بين هؤلاء الأقوام ولغاتهم وبين المسلمين ممثلين بدينهم ولغة هذا الدين : العربية .

وللأديان وجه آخر من التحاور والتثاقف مع اللغات . هذا الوجه (وهو مهم) يتمثل فى الاهتمام بالكتابة Writing وتطويرها ، بل وربما فى ابتكارها . ليس من البعيد أن نفترض أن الكتابة قد ابتكرت فى الأصل لا بوصفها أداة مساعدة للكلام ، تسجله وتصوّره لتضمن له نوعًا من الاستمرارية والانتشار ، وإنما جاء ابتكارها وفاء لنزعة دينية ترمى إلى نشر الدين وتوسيع مظلته ، بحيث تغطى أرجاءً فسيحة من الأرض ، وبحيث تكون الكتابة بمثابة « المستودع » Depository لمبادئه وتعاليمه التى قصد إلى المحافظة عليها وتأكيدها والعود إليها ، كلما دعت الحاجة إلى الامتياح منها والتزويد من مادتها .

وربما يؤيد هذا الافتراض أن أقدم الوثائق المكتوبة فى بعض اللغات وثائق دينية . فالنقوش المسمارية الأكادية والهيروغليفية المصرية مثلا تكاد تكون مقصورة على المقدّسات وما ارتبط بها من أحداث وأخبار وحكايات . ومن اللافت للنظر أن الكلمة المصرية « هيروغليف » Hieroglyph ذاتها تعنى « النقش المقدس » . وكذلك الحال فى لغات أخرى من العالم القديم ، كالصين والهند ، حيث وجد أن أقدم النصوص المكتوبة هناك نصوص تحكى أخبار العرّافين The Soothsayers ، وتسجل الترانيم والطقوس الدينية . وفى إيران ، كرّست اللغة القديمة المقدسة « أفستا » Avestan لتسجيل أفكار « الزراشتية » Zoroastrianism وطقوسها ومعتقداتها .

ويشير التاريخ فى القديم والحديث إلى أن اللغة وبخاصة فى صورتها

المكتوبة غالبًا ما تؤخذ رمزًا للعقيدة الدينية ودليلًا عليها . فالدين عامل اجتماعى مهم يحتاج إلى وسيلة اجتماعية أخرى، تنشره وتثبت أركانه، وما هذه الوسيلة - بحكم المنطق والواقع - إلا اللغة التى تجمع الناس فى المجتمع **المعين** على لسانٍ واحد . وإذا كان هذا الارتباط الروحى بين الدين واللغة **المنطوقة** واضحًا وظاهرًا بالنسبة للعامة، فهو بالنسبة للغة **المكتوبة** أعمق وأوثق ؛ لأنَّها - بحكم استمراريتها وديمومتها النسبية - تضمن له استقراره وبقاءه وانتشاره إلى آفاقٍ أوسع وأرحب . وربما يؤيد هذا الارتباط الرمزى بين الدين واللغة **المكتوبة** ما جرى ويجرى فى بلاد مختلفة من العالم . فاللغة « الكرواتية - الصربية » فى يوغوسلافيا (سابقًا) مثلًا ، تحسب لغة واحدة فى صورتها النطقية ، فى جميع أغراضها ومجالات توظيفها ، ولكنها مع ذلك تكتب بنظامين مختلفين ، وفقًا لاختلاف العقيدة أو الاتجاهات الدينية لدى المنتمين إلى هذه اللغة . يكتبها « الكرواتيون » الكاثوليك برموز **لاتينية** ، فى حين يستخدم « الصربيون » الأرثوذكس الرموز « الكيريلية » Cyrillic[٤] . وإنه لمن الطريف حقًّا أن تظهر آثار هذه الاتجاهات الدينية فى كتابة هذه اللغة ، وتعلن عن نفسها فى بعض المواقع العامة ، كما هو الحال فى محطات السكك الحديدية فى يوغوسلافيا ، حيث تكتب أسماؤها بالنظامين المذكورين معًا .

واللغة « الهندوستانية » ، أهم اللسن الهندية الكثيرة ، تأخذ صورتين من الكتابة ، وفقًا لعقائد الأقوام هناك . فالهندوس « Hindus » الذين يطلقون على هذه اللغة اسم « الهندية » « Hindi » ، يستخدمون الرموز « الدفنجارية » Devanagari - التى تقوم على أساس الخط السنسكريتى فى

حين أن المسلمين الذين يسمونها «اللغة الأردية» Urdu يكتبونها بالحرف العربى. وهناك فى منطقة «إنجادين» Engadine بسويسرا، حيث يتكلم أهل هذه المنطقة اللغة «الرومانشية» Romansh، قريتان؛ إحداهما كاثوليكية وأخرى بروستانتية. وعلى الرغم من أن هاتين القريتين تستخدمان لهجة واحدة، فإنهما درجتا على كتابتها بطرق مختلفة، لتأكيد هويتهما الدينية وفرديتهما[٥].

أما عن دور الإسلام فى الكتابة وفضله عليها (فى إطار التحاور والتثاقف بين اللغة والدين)، فهو أمر بالغ الأهمية يثير العجب ويبعث على الاعتزاز ويوجب التنويه به، حتى تتبين الحقيقة لغير العارفين بمدى تأثير هذا الدين فى الكتابة العربية وفاعليته فى تنميتها وتطويرها وإخراجها على صورتها المعهودة التى أهلتها أداة أساسية للتواصل بين القاصى والدانى من المسلمين، وسبيلًا راشدًا لنقل مبادئ الإسلام وقيمه وثقافاته إلى العالم فى مجموعه.

وقصة علاقة الإسلام بالكتابة العربية قصة طويلة عريضة تحتاج إلى بحث مستقل، نأمل أن نأتى به فى فرصة أخرى إن شاء اللّه.

الهوامش

(١) إبراهيم : ٤ .

(٢) « اليديسن » هى اللغة اليهودية ذات العناصر العبرية والألمانية ، و « السفاردية » تطلق على اللكنة الشرقية للغة العبرية . وينبغى أن نقرر فى هذا المقام بالذات ، أننا لا نحاول عقد مقارنة بين موقع الإسلام من العربية وموقع اليهودية من العبرية والآرامية ، فهناك فرق بل فروق بين الحالين ، وإنما قصدنا مجرد التنويه أن للأديان فى عمومها تأثيرا فى لغاتها . ويختلف هذا التأثير قوة وضعفًا بحسب الدين المعين . فالمعروف أن العبرية لسان اليهودية قد انزاحت من الاستعمال الحى فى وقت مبكر جدًّا ، قدره الدارسون بالقرن السادس قبل الميلاد ، فى حين أن العربية لازمت دينها (الإسلام) ولم تفارقه لحظة حتى يومنا هذا ويظهر الفرق بين الحالين كذلك فى أن التوراة كتاب اليهودية (وكذلك الإنجيل كتاب المسيحية) لا تحظر قراءتهما أو كتابتهما بأى لغة ، فى حين أن القرآن تحرم تلاوته وكتابته بغير العربية . ولنا أن نزيد على ذلك فنقول : إن سائر الأديان (أى باستثناء الإسلام) لا تقرأ كتبها الأصلية إلا بلغة البلد التى ظهرت فيه . فإذا ما انتقلت هذه الأديان من بلد إلى آخر بأية وسيلة من الوسائل ، قرئت كتبها مترجمة إلى لغة هذا البلد أو ذاك . وهذا واضح كل الوضوح فى التوراة والإنجيل - وهما كتابان منزلان - حيث لا يقرآن فى عوالمهما إلا بلغة هذه العوالم . « وليس كذلك الحال فى القرآن الكريم ، فإن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغته جزء من حقيقة الإسلام ، لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه ، لأنها كانت ترجمانا للوحى ولغة كتابه ومعجزة لرسوله ولسانًا لدعوته . ثم هذبها النبى الكريم بحديثه ونشرها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده . فالقرآن لا يسمى قرآنًا إلا فيها ، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها » . (راجع الأستاذ أحمد حسن الزيات - مجلة منبر الإسلام - العدد ٦ السنة ١٨ - نوفمبر ١٩٦٠ ، ص ٢٢) .

(٣) معلوم أن ترجمة القرآن حرفيًا غير ممكنة . وإنما الممكن ترجمة معانيه وأحكامه أو مبادئه عن طريق تفاسيره .

(٤) وهى كتابة تنسب إلى « كيرلس » ، وهو يونانى قام بإدخال هذا النظام إلى شرق أوربا ، وتدون به لغات مختلفة ، أشهرها الروسية .

(٥) فى موضوع « العلاقة بين الدين واللغة » بوجه عام ، راجع « ماريوباى » Mario Pei (The Story of language) ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، سنة ١٩٦٨ م .

* * *

معهد البحوث والدراسات العربية